مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 11، عدد رقم: 01، مارس 2022، صص: 225-238

تاريخ الاستلام(2021/09/15)تاريخ القبول (2022/03/10)تاريخ النشر (2022/03/30)

الدلالة السياقية للمشترك اللفظي في تفسير القرطبي

The Contextual Significance of the Verbal Joint in al-Qurtubi's Interpretation

طرش لخضر.
المركز الجامعي بآفلو-الأغواط (الجزائر)، l.tourch@cu-aflou.edu.dz

ملخص:

يتناول هذا البحث الدلالة السياقية للمشترك اللفظي في تفسير القرطبي؛ بإبراز أثر السياق بنوعيه عند الإمام القرطبي، في تحديده المعنى السليم للألفاظ المشتركة التي يمكن أن تحمل على أكثر من وجه، ونسعى من خلال البحث إلى التعرف على ملامح الدرس السياقي عند المفسرين عموما، ومن أهم الإشكاليات التي حاولنا الإجابة عنها: ما أهم عناصر السياق التي استند إليها القرطبي فيما يراه أو يرجّحه أو يردّه من المعاني التي تحتملها الألفاظ المشتركة؟ وما الذي يستشفّ من عرضه للأدلة السياقية ومناقشته لها؟

ومن بين النتائج المتوصَّل إليها أن المفسرين قد أوْلَوا دلالة السياق بنوعيه عناية بالغة، وأن عناصر السياق اللفظي إذا لم تكن أحيانا كافية في ضبط المعنى، فإنه يُستنَد إلى سياق الحال بقرائنه المتنوعة، وهذا عندما تتعدد السياقات، ويرِد الاختلاف في توجيهها.

كلمات مفتاحية: الدلالة؛ السياق؛ اللغة؛ المقام؛ المشترك اللفظي؛ التفسير؛ القرطبي.

Summary:

This research deals with the contextual significance of the verbal common in the al-Qurtubi's interpretation, by highlighting the impact of both types context according to Imam Al-Qurtubi; in determining the appropriate

المؤلف المرسل: طرش لخضر، **الإيميل:** l.tourch@cu-aflou.edu.dz

meaning of commonly-shared words that can be carried in more than one meaning. Through this research, we attempt to identify the features of the contextual lesson for the interpreters in general. Among the most important issues we try to solve are the following: What are the most important contextual components that al-Qurtubi relies on regarding what he sees, recommends, or refutes from the meanings that the commonly-shared words bear? What does he inferred from his display and discussion of contextual evidence? Among the results reached is that the interpreters have given great care to the significance of the two types of contexts, and that the elements of the verbal context are sometimes insufficient in monitoring the meaning. It is based on the context of the case with its various presumptions/ analogies, and this is when the contexts are multiple, and the divergence in directing it is raised .

Keywords: semantics, context, language, commonly-shared utterances, interpretation, al-Qurtubi

1. مقدمة:

إن من أصول التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، بأن يحدد معنى اللفظ من خلال عناصر السياق الداخلي للنص القرآني، وكذا ما يتصل بذلك من قرائن سياق الحال، ومن الألفاظ التي يكون السياق هو المستند في ضبط دلالتها الألفاظُ المشتركة، التي تتفق ألفاظها وتتعدد معانيها، وقد أولى المفسرون عنايتهم بما ورد منها في القرآن الكريم، وكذا الحال بالنسبة للأصوليين والفقهاء.

وهذا البحث الموسوم بـ **"الدلالة السياقية للمشترك اللفظي في تفسير القرطبي"**

يسلط الضوء على أثر السياق بنوعيه المقالي والمقامي في ضبط دلالة المشترك اللفظي عند الإمام القرطبي، في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن".

فما ضابط مفهوم المشترك اللفظي عند علماء الشريعة؟ وما أهم عناصر السياق التي اعتدّ بها الإمام القرطبي في تحديد معنى المشترك اللفظي؟ وكيف يتم له الترجيح بين

الأوجه التي يحتملها اللفظ المشترك، ويستند كل منها إلى سياقات معينة؟

ومن الأهداف التي يسعى إليها هذا البحث إبراز دور السياق في تحديد المعنى السليم للكلمة في القرآن الكريم، ولفت الانتباه إلى جهود المفسرين في البحث اللغوي وإثرائه، وعنايتهم بدلالة السياق.

وقد تطلب هذا الموضوع أن ندرس فيه أهم مباحثه الأساسية، وفق الخطة الآتية:

ـ **المبحث الأول: الدلالة السياقية:** تناولنا فيه: 1.الدلالة وعلم الدلالة. 2.السياق والسياق القرآني.

ـ المبحث الثاني: المشترك اللفظي؛ مفهومه ووقوعه: تناولنا فيه: 1.مفهوم المشترك اللفظي. 2.وقوع المشترك اللفظي في اللغة وفي القرآن.

ـ المبحث الثالث: توجيه دلالة المشترك اللفظي من خلال السياق في تفسير القرطبي: درسنا فيه: 1.لفظ"أُمَّة" ودلالاته في السياق القرآني، وتعرفنا فيه على المعاني الخمسة الواردة في القرآن من خلال السياقات التي وردت فيها. 2.المشترك اللفظي "قروء" وسياقات دلالته، وتعرفنا فيه على معنييْه وسياقات كل منهما.

ـ الخاتمة: أثبتنا فيها ملخص البحث، وأهم نتائجه، وتوصية.

2.المبحث الأول: الدلالة السياقية:

الدلالة السياقية من أهم المباحث التي عني بها العلماء والدارسون المهتمون بدراسة النص القرآني، من مفسرين وأصوليين وفقهاء ودارسي مسائل العقيدة، وهي تندرج عموما ضمن أنواع الدلالة اللفظية، بل هي أهم أنواعها، لأنها محصِّلة ونتيجة حتمية للأنواع الأخرى في الغالب، بإضافة عناصر السياق، فهي الدلالة الناشئة عن الاستناد إلى عناصر السياق بشقيه. وليتضح أكثر مفهوم الدلالة السياقية ينبغي التعريف بعنصري هذا المصطلح المركب، أي: الدلالة والسياق، وكذا ما يتصل بهما من بعض المباحث والقضايا.

1.2 الدلالة وعلم الدلالة:

مفهوم الدلالة: الدلالة في **اللغة**: من "دلَّ، يدلّ"، دَلالة، ودِلالة، وهي ما يُتوصَّل به إلى معرفة الشيء، وتستعمل مصدرا واسما، قال الراغب: <<الدلالة: ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات والرموز الكتابية والعقود في الحساب.. أصل الدلالة مصدر.. ثم يسمى الدال والدليل دلالة كتسمية الشيء بمصدره>>[(1)].

والدلالة في **الاصطلاح** لها تعريفات عدة، أحسنها وأوجزها تعريف الشريف الجرجاني، حيث عرفها بقوله: <<الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول>>[(2)].

أقسام الدلالة: قسم العلماء والدارسون الدلالة تقسيمات عدة، من أهمها تقسيمها بحسب مصدرها، وهي: الدلالة الصوتية، والدلالة المعجمية، والدلالة الصرفية، والدلالة النحوية أو التركيبية، والدلالة السياقية[(3)]، وهناك تقسيمات أخرى للدلالة باعتبارات أخرى معينة، كما في مؤلفات الأصوليين، ممن سلك مسلك المتكلمين، وهم جمهور الأصوليين، وكذا ممن سلك مسلك الحنفية، **ولهذه التقسيمات** أهميتها وأثرها في فقه الخطاب القرآني واستنباط الأحكام.

علم الدلالة: يعرّف علم الدلالة بأنه << العلم الذي يدرس المعنى، أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى، أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز،

حتى يكون قادرا على حمل المعنى>>[4]، وقد حظي هذا العلم باهتمام الدارسين من غربيين وعرب، واتسعت مجالاته، وتعددت مباحثه، واستحدثت فيه نظريات مختلفة.

2.2 السياق والسياق القرآني:

للسياق بشقيه المقالي والمقامي دور مهم في ضبط دلالات الألفاظ، وتحديد معانيها، وإزالة اللبس عنها، ذلك أن اللفظ المركب إنما يفهم من خلال سياقه، قلّت عناصر هذا السياق أم كثرت وتعددت، لذا تبرز قيمة السياق القرآني وأهميته البالغة في الفهم السديد لمراد الله تعالى، والاستنباط الصحيح لأحكامه وتعاليمه، كما أن السياق القرآني هو أحد أهم وجوه إعجاز القرآن وسر اتساقه وترابطه.

مفهوم السياق: السياق في **اللغة** من ساق، يسوق، ومن معانيه: الحذو والتوالي والتتابع والسرد، وهي معان متقاربة، قد يشملها لفظ "التتابع" الذي نصت عليه أكثر المعاجم اللغوية. قال ابن فارس: <<السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حذو الشيء>>[5]، وأشار كل من الجوهري والزمخشري وابن منظور إلى بعض معاني السياق، ومنها: التتابع والتوالي والسرد، من خلال معاني بعض العبارات المستعملة، وما تؤول إليه بعض الألفاظ[6]، وفي المعجم الوسيط: <<..سياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه>>[7].

والسياق في **الاصطلاح** عبارة عن ارتباط مكونات الحدث الكلامي بعضها ببعض من أصوات وكلمات وجمل ونصوص، وما يحيط به من قرائن وأحوال، أي عبارة عن العلاقات الداخلية وكذا المحيط الخارجي للحدث الكلامي.

وهذا التعريف يشمل السياق بنوعيه: اللغوي وغير اللغوي، فالسياق اللغوي عبارة عن <<النظم اللفظي للكلمة، وموقعها من ذلك النظم، بأوسع معاني هذه العبارة>>[8]، ويتمثل في <<الأصوات والكلمات والجمل كما تتابع في حدث كلامي معين أو نص لغوي>>[9]، ويسمى اللفظي، والمقالي كذلك، والسياق غير اللغوي عبارة عن <<جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي، أو الحال الكلامية>> [10]، ويسمى المقامي، وسياق الحال كذلك.

أما المقصود بالسياق القرآني فهو الاتساق الداخلي للنص القرآني، وما يتصل به من حيثات خارجية متعلقة بنزوله وبيانه، فالمقصود بالاتساق الداخلي ارتباط ألفاظه وآياته وسوره بعضها ببعض، ويدخل هذا ضمن وجوه إعجاز نظمه، والمقصود بالحيثيات الخارجية المتعلقة بنزوله وبيانه: أسباب النزول ومكانه، والناسخ والمنسوخ، وبيان السنة.

3.المبحث الثاني: المشترك اللفظي: مفهومه ووقوعه:

المشترك اللفظي مبحث من أهم المباحث اللغوية، حظي بعناية علماء الشريعة، على غرار أهل اللغة، بل إن عناية علماء الشريعة بمثل هذه المواضيع تفوق عناية اللغويين أنفسهم، ذلك لأنها تتعلق بتفسير القرآن والفهم الصحيح لمراد الله تعالى من كلامه، واستنباط الأحكام الشرعية من مصدريها: القرآن والسنة، ويظهر هذا جليّا في كتب الأصول والتفسير والمؤلفات الفقهية على اختلافها وتنوعها.

1.3تعريف المشترك اللفظي:

عرّفه فخر الدين الرازي بقوله: <<هو اللفظ الموضوع لحقيقتين مختلفتين أو أكثر، وصفا أوّلا، من حيث هما كذلك>>[11]. فالمشترك اللفظي يُصطلَح به على اللفظ الذي يكون له أكثر من معنى على الحقيقة، كلفظ "القرء" الذي له معنيان: الحيض، والطهر، فإذا كان للفظ معنى حقيقي ومعنى آخر مجازي أو معانٍ أخرى مجازية لا يسمى مشتركا لفظيّا، قال الرازي: <<وقولنا: "وضعا أوَّلا" احترزنا به عما يدل على الشيء بالحقيقة وعلى غيره بالمجاز>>[12].

وينبغي التفريق بين المشترك اللفظي والمشترك المعنوي الذي يتناول الماهيات المختلفة المشتركة في معنى واحد، قال الرازي: <<وقولنا: "من حيث هما كذلك" احترزنا به عن اللفظ "المتواطئ"، فإنه يتناول الماهيات المختلفة، لكن لا من حيث إنها مختلفة، بل من حيث إنها مشتركة في معنى واحد>>[13].

ويظهر من خلال التعريف أن "المتضاد" يدخل ضمن مفهوم المشترك اللفظي عند علماء الشريعة، إذ لا قيد في التعريف يخرجه، وهذا ما نقله السيوطي عن أَلِكيا الهرّاسي[14].

2.3 وقوع المشترك اللفظي في اللغة وفي القرآن:

اختُلف في وقوع المشترك اللفظي، بين وجوبه واستحالته وجوازه، وجمهور أهل اللغة والأصوليين على وقوعه في اللغة والقرآن، قال السيوطي: <<والأكثرون.. على أنه واقع لنقل أهل اللغة ذلك في كثير من الألفاظ، ومن الناس من أوجب وقوعه>>[15]، وقال الشوكاني بعد أن ذكر أدلة كل فريق مما هو مستفاد في غالبه مما ذكره الرازي: <<وبعد هذا كله فلا يخفاك أن المشترك موجود في هذه اللغة العربية لا ينكر ذلك إلا مكابر>>[16].

فالمشترك اللفظي موجود في اللغة وفي القرآن، ولكن ينبغي التقيد بضوابطه، حتى لا تختلط الحقيقة بالمجاز، ويُتوسع في مجاله بدون فائدة.

4.المبحث الثالث: توجيه دلالة المشترك اللفظي من خلال السياق في تفسير القرطبي:

في القرآن الكريم ألفاظ مشتركة تحتمل أكثر من معنى، والسياق بعناصره المتعددة هو الذي يحدد دلالة هذه الألفاظ، والمعنى السليم لها، لأن الاشتراك يضيق داخل السياق، ويرِد

الاختلاف أحيانا في المعنى الذي تحمل عليه بعض الألفاظ، وذلك لاختلاف وجهات النظر في اعتبار السياقات التي يحتكم إليها في ضبط دلالة هذه الألفاظ، ويكون فيها سعة وفسحة، ولا إنكار حينذاك على المخالف إذا اعتمد على أدلة معتبرة.

وقد استند الإمام القرطبي[17] في توجيه دلالة الألفاظ المشتركة إلى كثير من عناصر السياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي، واعتنى كثيرا بما ترتب على ذلك من مسائل الخلاف، وبخاصة إذا ما تعلق الأمر باستنباط الأحكام الشرعية، ومناقشة آراء أصحاب المذاهب الفقهية. ونكتفي في هذا البحث، بحسب ما تسمح به مساحته، بتناول لفظين مشتركين؛ الأول اتضحت في كل معنى من معانيه الخمسة الواردة في القرآن عناصر السياق، وتبين من خلالها المقصود، والثاني كان الخلاف في المعنى الذي يحمل عليه من بين معنييه مستساغا ومعتبرا، لتعدد سياقاته اللفظية والمقامية.

1.4لفظ "أُمَّة" ودلالاته في السياق القرآني:

ورد لفظ "أُمَّة" بصيغة الإفراد غير مضاف في القرآن الكريم في سبع وأربعين موضعا، منها اثنان في موضع واحد، وبالإضافة (أُمَّتُكُمْ) في موضعين، وورد بصيغة الجمع في اثني عشر موضعا، وتختلف معانيه بحسب السياق، وأكثرها ورودا الجماعة والجيل.

أشار القرطبي إلى المعنى الأصلي الذي تدور حوله معاني كلمة "أُمَّة" بأنها <<مأخوذة من قولهم: أمَمتُ كذا، أي: قصدته، فمعنى "أُمّة": مقصدهم واحد، ويقال للواحد: أُمّة، أي: مقصده غير مقصد الناس>>[18]، ومن المعاني التي ذكرها أصحاب المعاجم لهذا اللفظ، وهي متقاربة: المرجع، والجماعة، والدين، والحين، والقرن من الناس، والجيل[19]، وذكر السِّجِستاني والقرطبي أن هذا اللفظ المشترك يقع على ثمانية أوجه، هي: الجماعة، وأتباع الأنبياء عليهم السلام، والرجل الجامع للخير الذي يقتدى به، والدين والملة، والحين والزمان، والقامة، والرجل المنفرد بدينه وحده لا يشركه فيه أحد، والأم[20]، وأكثر هذه الأجه وَرد في القرآن الكريم.

فمن الآيات التي يحمل فيها هذا اللفظ على معنى الجماعة، أو الجيل من الناس ـ وقد وردت في أغلب المواضع ـ قوله تعالى، في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: **:رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ** [البقرة، 128]، فالسياق الداخلي لهذه الآية يفهم منه المقصود بالأمة، حيث إن <<**"مِنْ"** في قوله: **"وَمِن ذُرِّيَّتِنَا"** للتبعيض، لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين>>[21]، أي أعلم الله إبراهيم بهذا، ودعا عليه السلام بأن يكون من ذريته مسلمين، لذا فسر القرطبي الأمة هنا بالجماعة، وذكر بعضا من معانيها الأخرى في بعض المواضع الأخرى، ومن هذه المعاني: الواحد الذي يقتدى به، والدين والملة، والحين والزمان[22]. ومنها قوله سبحانه: **:تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**

[البقرة،134]، أي: تلك جماعة، وهم الأنبياء، وتكررت هذه الآية عن قرب، أي بعد ست آيات، لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي: إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم، فأنتم أحرى[23]، وفسرت "أُمَّة" هنا بجماعة الأنبياء، أي إبراهيم وسائر الأنبياء، بالنظر إلى سياق الآيات السابقة، والتي تتحدث عن اتّباع ملة إبراهيم، ووجوب الإيمان بالأنبياء كلهم وما أنزل عليهم وما أوتوا، ومنهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى عليهم السلام، وأن لا نفرق بين أحد منهم، <<أي: لا نؤمن ببعضهم، ونكفر ببعضهم، كما فعلت اليهود والنصارى>>[24].

وتطلق "أُمّة" على الواحد الجامع للخير الذي يقتدى به، وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً** [النحل، 120]، فسرت "أُمّة" هنا بالرجل الجامع للخير، أو بالإمام الذي يقتدى به[25]. ومما يبرز هذا المعنى سياق الآية الكريمة، لأن فيها إخبارا عن واحد وهو إبراهيم عليه السلام، ولأن سياق الحال يدل على معنى الاقتداء الذي لا يصلح إلا بمن اكتملت فيه خصال الخير، وله فضل على غيره، وهذا الذي أشار إليه القرطبي بقوله: <<دعا (أي محمد) عليه الصلاة والسلام مشركي العرب إلى ملة إبراهيم، إذ كان أباهم وبانيَ البيت الذي به عزهم>>[26].

ومن معاني "أُمَّة" في القرآن الكريم: الدين الواحد، أو الملة الواحدة، كما في قوله تعالى: **:إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** [الأنبياء، 92]، أي دينكم الذي يجب أن تكونواْ عليه دين واحد، وملتكم واحدة غير مختلفة[27]، قال القرطبي: <<فالأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام، قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما>>[28]، لأن هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن قصص الأنبياء، ودعوة الأنبياء واحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، وإن اختلفت شرائعهم، وهذا هو الإسلام الذي ما من نبي من أنبياء الله إلا التزمه ودعا إليه، قال سبحانه: **:إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ9** [آل عمران، 19]، ويظهر هذا من خلال ما ذكره القرطبي في توضيحه لمعنى الأمة في هذا الموضع بقوله: <<لما ذكر الأنبياء قال: هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد>>[29].

كما يطلق لفظ "أُمَّة" على الطريقة المتبعة عموما، وإن كانت على غير هدى، وقد ورد بهذا المعنى في آيتين متتاليتين من سورة الزخرف، قال تعالى: **:بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** [الزخرف، 22، 23]، حيث حمل كثير من المفسرين "أُمَّة" هنا على معنى الطريقة والمذهب، وهذا ما يفسره سياق الآيتين وكذا السياقان السابق واللاحق لهما، فالآية الأولى تتحدث عن حال مشركي مكة وعدم استجابتهم لدعوة النبي ﷺ، وردّهم بأنهم متمسكون بما وجدوا عليه آباءهم، والآية الثانية تصف حال المكذبين للرسل، وأن حالهم لا تختلف عن حال هؤلاء المشركين، وكذلك فإن الآيات السابقة تخبر عن بعض المعتقدات

الباطلة عند المشركين، وأما السياق اللاحق لهاتين الآيتين فيتمثل في دعوة النبي ﷺ للمشركين إلى دين الهدى والحق، الذي يختلف عن طريقتهم الباطلة، وهو أهدى مما وجدوا عليه آباءهم، فهذه السياقات كلها تدل على أن المقصود بالأمة هنا هو الطريقة أو المذهب، وإذا فسرت بالدين فالمقصود به الدين الباطل، لا الدين الحق الذي دعا إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام. فقد نقل القرطبي عن عمر بن عبد العزيز أن المقصود بأمة هنا: طريقة ومذهب، وعن الجوهري أنها طريقة ودين، وعن مجاهد وقطرب أنها دين وملة، وذكر أن هذه الأقوال متقاربة(30)، وبيّن المراد من دعوته ﷺ في الآية التالية لهاتين الآيتين بقوله: <<يعني: أتتبعون آباءكم، ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم>>(31)، أي كيف تقتدون بما وجدتم عليه آباءكم من طريقة ومعتقدات باطلة، وقد جئتكم بما هو أهدى، أي بالدين الحق.

ومن معاني "أُمَّة" كذلك في القرآن الكريم: وقت، وحين، وأجل، قال تعالى: **وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ** [هود، 8]، أي <<إلى أجل معدود، وحين معلوم، فالأمة هنا المدة>>(32)، وهذا المعنى منقول عن جمهور المفسرين كابن عباس ومجاهد وقتادة(33)، وأصل الأمة الجماعة، وعبر بها عن المدة لحلولها فيها(34)، ومما يبرز تفسير "أُمَّة" هنا بمعنى "مدة"، أو "حين"، أو "وقت"، أو "أجل" السياق اللفظي للآية نفسها المتمثل في لفظي: **"أَخَّرْنَا"** و**"مَعْدُودَةٍ"** اللذين إن اجتمعا في سياق معين دلَّا على الزمن، وقد يدلان مفردين كذلك على هذا المعنى، ومن هذا المعنى كذلك قوله تعالى: **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** [يوسف، 45]، <<أي بعد حين.. وأصله الجملة من الحين>>(35)، لدلالة لفظي "ادّكر" و"بعد" على هذا المعنى، وكذا من خلال ما دل عليه سياق آية سابقة تتحدث عن نسيان الفتى لما أوصاه به يوسف عليه السلام من ذكره عند سيده، ولبوث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين.

2.4المشترك اللفظي "قُروء" وسياقات دلالته:

ورد لفظ "قُروء" في قوله تعالى: **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ** [البقرة، 228]، واختلف المفسرون والفقهاء في دلالته على قولين مشهورين، فذهب فريق منهم إلى أن المقصود منه "الأطهار"، وذهب آخرون إلى المقصود منه "الحيضات"، والقُروء جمع "قرء" بفتح القاف وضمها، والقرء في اللغة يطلق على الطهر وعلى الحيض، فهو من الأضداد، ويدخل ضمن مفهوم المشترك اللفظي عند الأصوليين، كما أسلفنا.

دلت الآية الكريمة على أن عدة المطلقات ثلاثة قروء، والمقصود من المطلقات هنا المدخول بهن غير اليائسات أو اللائي لا يحضن وغير الحوامل، كما بيّنته نصوص أخرى، وقد اختلف في معنى القروء في الآية، هل هي أوقات الطهر، أم أوقات الحيض، لأن <<كلمة القرء محتملة للطهر والحيض احتمالا واحدا، وبه تشاغل الناس قديما وحديثا من فقهاء ولغويين في تقديم أحدهما

على الآخر>>[36]، والقول بأنها الحيَض هو مذهب أبي حنيفة ورواية عن أحمد، والقول بأنها الأطهار هو مذهب مالك والشافعي ورواية عن أحمد.

استدل أصحاب القول الأول بأدلة متعددة، منها، كما أشار القرطبي[37]، الاستناد إلى مفهوم العدد "ثلاثة"، أي ثلاثة قروء كوامل، والحال أننا إذا أخذنا بالقول الثاني فإن المطلقة في طهر تعتد ببقية الطهر الذي طلقت فيه وطهرين بعده، فتكون عدتها طهرين وبعض طهر، فدل على أن المقصود ثلاث حيَض لا ثلاثة أطهار، كما استندوا، بطريق القياس، إلى أن براءة الرحم بالنسبة للأَمَة هو حيضة واحدة، فكذلك الحال بالنسبة للحرة، وإن تعددت الحيضات، <<والمطلوب من الحرة في استبراء الرحم هو المطلوب من الأَمَة بعينه، فنص الشارع ﷺ على أن براءة الرحم الحيض، وبه يقع الاستبراء بالواحد في الأَمَة، فكذلك فليكن بالثلاثة في الحرة>>[38].

واستدل أصحاب القول الثاني كذلك بأدلة متعددة، أبرزها الاستناد إلى السياق اللفظي للآية المتمثل في المخالفة بين العدد والمعدود، قال القرطبي بعد استدلاله بقوله تعالى: **:سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ** [الحاقة، 7]: <<فأثبت الهاء في **"ثمانية أيام"**، لأن اليوم مذكر، وكذلك القرء، فدل على أنه المراد>>[39]، أي أن المقصود من القروء "الأطهار" التي هي جمع "طهر"، وطهر مذكر، فكان العدد (أي: ثلاثة) مؤنثا، ولو كان المقصود بالقروء "الحيَض" لقال: "ثلاث"، لأن مفرد حيَض "حيضة"، وهي مؤنثة، كما ردوا على القول بعدم تجويز تبعيض العدد بدلالة السياق الداخلي للنص القرآني في قوله تعالى: **:الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ9** [البقرة، 197]، والمراد به شهران وبعض الثالث، فكذلك قوله: "ثلاثة قروء"، إذ يجوز في لسان العرب أن يطلق البعض على الكل في إطلاق العدد وغيره[(40)].

وقد ترتّب على الاختلاف في مفهوم القروء تفريعات مختلفة وآراء وتوجيهات متعددة، وكل رأي أو توجيه له مستنده ووجاهته، إلا أن بعض الآراء والتوجيهات أحيانا تكون أقوى وأوضح من بعضها الآخر، بالنظر إلى تظافر معطيات السياق الداخلي للألفاظ، ووضوح القرائن المحتفّة بالنصوص.

5.خاتمة:

تناولنا في هذا البحث الدلالة السياقية للمشترك اللفظي في تفسير القرطبي، فتعرّفنا على الدلالة السياقية، ومن خلال ذلك تعرفنا على أنواع الدلالة وعلم الدلالة، وكذا السياق والسياق القرآني، وعرضنا لمفهوم المشترك اللفظي عند علماء الشريعة ووقوعه في اللغة والقرآن، ثم انتقلنا إلى الحديث عن توجيه دلالة المشترك اللفظي من خلال السياق عند الإمام القرطبي، فتعرفنا على لفظ "أُمّة" ودلالاته في السياق القرآني، ودرَسنا الدلالات الخمس التي وردت في القرآن وفق

سياقاتها، وتعرفنا كذلك على لفظ "قروء"، وبحَثنا فيه دلالتيه وسياق كل منهما، بحسب ما أورده القرطبي.

وتبيّن من خلال ما تناولناه أن عناصر السياق بشقيه تسهم بتظافرها كلها، أو تظافر بعضها، في استجلاء المعاني والكشف عن دلالات الألفاظ، وأن المشترك اللفظي في القرآن الكريم إنما يتحدد معناه من خلال السياق اللفظي الذي يرد فيه، وبالاستناد أحيانا إلى سياق الحال بقرائنه المتنوعة، وأن الاختلاف وارد في تحديد المعنى الذي يحمل عليه المشترك اللفظي إذا تعددت السياقات واختلفت، سواء أكانت لفظية أم مقامية، ليظهر فضل الباحث المجتهد على غيره في تمحيص الأدلة، والترجيح بين الأقوال، وقد كان هذا دأبَ علماء التفسير، ومنهم الإمام القرطبي، الذي لم يألُ جهدا في عرض الأدلة السياقية ومناقشتها في تبيينه للمقصود من الألفاظ التي تحتمل أكثر من معنى، وبخاصة إذا ما تعلق الأمر باستنباط الأحكام الشرعية، وبحث المسائل المختلف فيها، ومن بين الأدلة السياقية التي اعتدّ بها في ضبط المعاني والترجيح بين الأقوال: السياق السابق، والسياق اللاحق، وأصل اللفظ ودلالته المعجمية، وسياق المقام المتمثل في بيان دلالة اللفظ بسنة النبي ﷺ وأقوال الصحابة، وكذا حال المخاطبين.

ونأمل في الأخير أن تتظافر جهود الدارسين في إثراء البحث اللغوي، في جانبيه النظري والتطبيقي، بالعودة إلى مؤلفات المتقدمين، وبخاصة التي يعتني أصحابها بالتأصيل اللغوي، ويستندون أكثر إلى الآلية اللغوية في البحث والاستدلال، كالعديد من كتب التفسير ومؤلفات الأصوليين، على اعتبار أن اللغة عموما هي أصل الاستدلال بالنصوص.

مراجع البحث وإحالاته:

(1) الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، 2009، ص228.

(2) السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ص91.

(3) ينظر إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1976، ص46 وما بعدها، وأحمد نعيم الكَراعين، علم الدلالة بين النظر والتطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1993، ص95 وما بعدها.

(4) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998، ص11.

(5) ابن فارس أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، 1979، ج3، ص187.

(6) ينظر الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق محمد محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2009، ص573، والزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ج1، ص484، وابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، دار صادر، ودار الفكر، بيروت، ط6، 1997، ج10، ص166 وما بعدها.

(7) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص465.

(8) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال محمد بشير، مكتبة الشباب، (د.ت)، ص57.

(9) حلمي خليل، الكلمة (دراسة لغوية معجمية)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998، ص161.

(10) محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص311.

(11) الرازي فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، المحصول في علم أصول الفقه، تحقيق طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1992، ج1، ص261.

(12) الرازي، المحصول، ج1، ص161.

(13) نفسه، ج1، ص161.

(14) ينظر السيوطي عبد الرحمن جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت،(د.ت)،ج1، ص387.

(15) نفسه، ج1، ص369.

(16) الشوكاني محمد علي، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق سامي بن العربي الأثري، دار الفضيلة، الرياض، ط1، 2000، ج1، ص128.

(17) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاري الخزرجي القرطبي المالكي، له مؤلفات عدة، أهمها تفسيره المشهور، الذي يقع في اثني عشر أو خمسة عشر مجلدا، وهو مقسم إلى اثنين وعشرين جزءا في الطبعة التي اعتمدناها، توفي سنة 671هـ. ينظر في ترجمته مثلا: المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968 مج2، ص210، 211، وابن فرحون إبراهيم بن علي المالكي، الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، (د.ت)، ج2، ص308، 309.

(18) القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2006، ج3، ص405.

(19) ينظر ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج1، ص21، وابن منظور، لسان العرب، ج12، ص26، 27.

(20) ينظر السجستاني أبو بكر محمد بن عزيز، نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، دار المعرفة، بيروت، 2013، ص113، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص77.

(21) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص396.

(22) ينظر نفسه، ج2، ص397.

(23) ينظر ابن عطية أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، ج1، ص217، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص425.

(24) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص417.

(25) ينظر نفسه، ج2، ص397، وج12، ص457، وابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ط2، 1999، ج4، ص610، 611.

(26) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج12، ص457.

(27) ـ ينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج5، ص317، والصابوني محمد علي، صفوة التفاسير، دار الصابوني، القاهرة، (د.ت)، ج2، ص274.

(28) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص283.

(29) نفسه، ج14، ص283.

(30) ينظر نفسه، ج19، ص24، 25.

(31) نفسه، ج19، ص26.

(32) نفسه، ج11، ص77.

(33) ينظر الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، القاهرة، ط1، 2001، ج12، ص337، 338.

(34) ينظر الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، النكت والعيون (تفسير الماوردي)، عناية السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، (د.ت)، ج2، ص460. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص77.

(35) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص463، 464.

(36) ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، عناية محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط3، 2003، ج1، ص250.

(37) ينظر القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص42.

(38) ابن العربي، أحكام القرآن، ج1، ص184.

(39) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص42.

(40) ينظر ابن العربي، أحكام القرآن، ج1، ص185، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص43.

قائمة مراجع البحث وإحالاته:

1. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004.
2. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998.
3. أحمد نعيم الكَراعين، علم الدلالة بين النظر والتطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1993.
4. الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق محمد محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2009.
5. حلمي خليل، الكلمة (دراسة لغوية معجمية)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998.
6. الرازي فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، المحصول في علم أصول الفقه، تحقيق طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1992.
7. الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، 2009.
8. الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.
9. ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال محمد بشير، مكتبة الشباب، (د.ت).
10. السجستاني أبو بكر محمد بن عزيز، نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، دار المعرفة، بيروت، 2013.
11. السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د. ت).
12. السيوطي عبد الرحمن جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت).
13. الشوكاني محمد علي، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق سامي بن العربي الأثري، دار الفضيلة، الرياض، ط1، 2000.
14. الصابوني محمد علي، صفوة التفاسير، دار الصابوني، القاهرة، (د.ت).
15. الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، القاهرة، ط1، 2001.
16. ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، عناية محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط3، 2003.

17. ابن فرحون إبراهيم بن علي المالكي، الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، (د.ت).

18. ابن فارس أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، 1979.

19. القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2006.

20. ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ط2، 1999.

21. محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت).

22. المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.

23. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، دار صادر، ودار الفكر، بيروت، ط6، 1997.

24. الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، النكت والعيون (تفسير الماوردي)،عناية السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، (د.ت).